خطاب المسلم الحضاري في إطار فكرة العالمية

- د/ شرقي رحيمة أستاذ محاضر قسم "أ"
جامعة قاصدي مرباح /ورقلة
rahima-chargi@hotmail.fr
- د/ بكيري محمد أمين أستاذ محاضر قسم ب
جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة
m.bakiri@univ-dbkm.dz

الملخص باللغة العربية:

نحاول في هذا المقال تقديم رؤية فيلسوف الحضارة مالك بن نبي للدور الذي يجب أن يحمله العالم الإسلامي على عاتقه من أجل إعادة التوازن للحضارة الإنسانية بوجه عام. يتعلق الأمر برسالة الاسلام الحضارية التي تمليها حالة الإفلاس المعنوي والقيمي التي وقعت فيها الإنسانية. والتي تجعل من الواجب بعث ثقافة إسلامية تعيد أنسنة التاريخ البشري وترميم صورتها بإعادة الحياة لقيم الاسلام الحقيقية التي يأخذها مفهوم "التكريم " والتي تختفي غالبا بسبب التأخر المادي للعالم الإسلامي.

Résumé:

Cet article se propose d'exposer la conception de Malek ben nabi du rôle qu'incombe au monde musulman pour rendre à la civilisation contemporaine son équilibre perdu. Il s'agit donc d'une vocation culturelle dictée par la faillite morale de la civilisation contemporaine qui vit en pleine crise dont l'issue est liée selon Ben nabi avec la renaissance d'une culture islamique qui humanise l'histoire mondiale et rend aux valeurs authentiques de l'islam leur vraie place dans l'édification d'une civilisation humaine digne de son nom.

المقدمة:

إنّ « التداول الحضاري بكل ما يعنيه من تعاقب للأمم والثقافات والحضارات على مسرح النفوذ والهيمنة والعالمية، إما أن يمنح البشرية حضارة عالمية إنسانية كونية متوازنة، تستمتع فيها البشرية، بغض النظر عن ألوانها وأجناسها، وبيئاتها وثقافاتها»[1]؛ وثقافاتها»[1]؛ وهو أمر لا يتحقق إلا إذا تحرك الإنسان في التاريخ وغيّر نفسه تغييرا واعيا وفق نواميس الكون وقوانينه من أجل استغلالها أفضل استغلال، مبدأي تحديا وإرادة وعزيمة لا تقهر في إطار مبادئ أخلاقية وإنسانية راقية. وإمّا أن يمنح البشرية حضارة ناقصة مسيطرة مركزية مبنية على القوة والقهر والاعتداء والجور، وقائمة على منطق وقانون الغاب حيث الإنسان ذئب لأخيه الإنسان كما كان يقول الفيلسوف الإنجليزي توماس **هوبز**Thomas Hobbes(**1588 – 1679**). ويمكن القول أن النموذج الأول عرفته البشرية في بعض الحضارات من أبرزها الحضارة الإسلامية، أما النموذج الثاني فقد عرفته البشرية في عدة حضارات عبر التاريخ، ومنها الحضارة المادية الغربية الحالية في بعض جوانبها وبعض مراحلها، وإلاّ كيف نفسر ظاهرة الإستعمار، وكيف نفسر التلويح بالقوة من طرف بعض الدول العظمى لتحقيق مصالحها على حساب دول ضعيفة، بل وإستعمال القوة لتركيعها في بعض الأحيان مثلما يحدث الآن بين الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية المتحالفة معها بالإضافة إلى إسرائيل ضد إيران، ومثلما حدث منذ مارس 2003 إلى يومنا هذا من خلال احتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق بالتحالف مع بعض الدول.

1– الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الإستخلافية، قراءة في سنن التغيير الإجتماعي**، ط1(الجزائر، دار قرطبة،2004) ص58.

العرض:

إنّ التداول الحضاري حقيقة لا شك فيها، حقيقة أدركها مالك بن نبي وحاول أن يدفع المسلم ليقوم بدوره في مجال النهضة واستعادة المجد الضائع وإعادة بناء حضارته من جديد، حضارة إسلامية إنسانية عالمية متكاملة، تساعد الإنسان المعاصر – سواء أكان مسلما أو غير مسلم – على العيش في كرامة وسعادة وطمأنينة وسلام. خاصة وأن مالك بن نبي كان يبشر بقرب الوصول إلى عالم واحد وإلى حضارة في مستوى طموحات الإنسان العالمي، وإلاّ الكارثة إذا هي فشلت في بلوغ غايتها. ومن هنا فإنّ دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين كما توقع مالك بن نبي هو قدر الناس جميعا في نهاية الأمر. إذ نلاحظ أنه في «مقال نشر في صحيفة الجمهورية الجزائرية في 26 آذار 1954 كتب بن نبي: "أو ليس الحل في تطور يضفي على الحضارة طابع الأممية والقارية، أي طابع عالمية تفرض على الأوربي عالم الآخرين، إذ سيجد رحابهم هنالك معنى الإنسانية؟ فعالمية الحضارة سوف تكون الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الغرب المتورط بشيطان الإستعمار؛ إذ في إطارها سيتعرف الأوربي على الآخرين الذين لم يكن يرى فيهم غير طائر صيد. إذ سوف يتحدث بكل تأكيد عن عالمية خارج مناورات السياسة الراهنة، لتلك القوى التي تحاول أن تهيمن كمراقب وحيد على العالم، لتؤسس عالمية هي مرادفة لما تسمى (الأمريكانية)»[1]. وهذا بالاعتماد على دور ورسالة ومجهود المسلم اليوم وغدا، إنّه الإسلام الذي يَطمئن إليه مستقبل الإنسانية.

لقد حاول مالك بن نبي تحديد دور المسلم من خلال ما اختاره له الله، وهو دور خطير أساسه الآية التالية: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»[2]، وخطورة هذا الدور تكمن أولا: في طبيعة القرن

1– عمر مسقاوي، من مقدمة كتاب **مجالس دمشق لمالك بن نبي**، ص21.
2 –قرآن كريم، سورة البقرة الآية 143.

العشرين الذي يتميز بها عن القرون الأخرى كلها، «لأنه القرن الذي تحققت فيه تغيرات جذرية بدت كأنها ترسم للإنسانية نقطة عدم الرجوع على محور الزمن، فهو القرن الذي هبت فيه عواصف التاريخ على مصير الإنسانية. ثانيا: لأنه القرن الذي سجل الأحداث الكبرى، سواء في مجال العلم، أو—كما سنرى— في المجال النفسي، أو في المجال الأخلاقي والديني. ففي كل هذه المجالات هبت عواصف كبرى يبدو أنها غيرت معالم الطريق. وعلى أية حال فهي قد غيرت ملامح الزمن والمجتمعات الإنسانية»[1].

هذا، ومن أبرز تلك الأحداث الكبرى الحربين العالميتين وما خلفتاه من آثار مدمرة على الإنسانية قاطبة، خاصة ما تعلق منها بنتائج الحرب العالمية الثانية؛ وهذا ما جعل مالك بن نبي يركز على القرن العشرين وخاصة الثلث الأخير منه الذي أعتبره نهرا قرب شاطئ البحر وقد بلغ المصب بعد أن تجمعت فيه جميع روافده من المياه التي انحدرت من أعالي الجبال في أقصى داخل البلاد، ومنه فالثلث الأخير هو فترة من التاريخ تجمعت فيها كل روافد التاريخ بكل نتائجها النفسية والاجتماعية والسياسية والعلمية، وكل التغيرات المترتبة على هذه النتائج. كل هذا كان مبررا كافيا حتى يختار مالك بن نبي الثلث الأخير من القرن العشرين باعتباره حقبة زمنية استثنائية في التاريخ، حيث يكون دور المسلم فيها مميّزا وخطيرا وإستثنائيا أيضا، وهو دور مرتبط أشد الإرتباط بالدور الذي حدده له القرآن أو الإسلام وهو دور الشهادة، أي أن يكون المسلم شاهدا. وطبيعة هذا الدور المتميزة، مرتبطة بما يتميز به الثلث الأخير من القرن العشرين، وما يتميز به العالم المعاصر المتحضر، لأن مركز الفكر العالمي اليوم يوجد على محور واشنطن – موسكو المتحالف مع إسرائيل، محور القوة، محور العلم، محور الحضارة.

هذا المحور الذي نشأ فيه الإنسان منذ القرون الماضية – القرن التاسع عشر على الخصوص – في جو من الأفكار منبتها الاستعمار، وفي محيط تلك الجيوش التي

1- مالك بن نبي، **مجالس دمشق**، دمشق: دار الفكر، 2005.ص 160.

تفتح البلدان التي تسمى المستعمرات، محيط أساسه المناخ الإستعماري الذي ساد الغرب بصفة عامة، وأوروبا وأمريكا بصفة خاصة. « هذا المناخ الإستعماري هو الذي كان ينشأ فيه الطفل منذ ولادته، حيث لا يبدو غريبا في هذا المناخ الذي كان يسود العالم المتحضر أن يقوم من فرنسة كاتب قصصي كبير في أواخر القرن الماضي هو (جول فرن) ليكتب عن ملحمة لا تمت بصلة إلى بطولة الفرنسيين أو بطولة الجيش الفرنسي هي ملحمة عنوانها (**ميشال ستروجوف**) بل تتصل بفتح روسية للبلاد الإسلامية في بخارى. وكانت قصة غريبة فعلا، تدل بالتأكيد على سيادة المناخ الإستعماري شرق البلاد وغربها، ذلك المناخ الذي سيتم فيه إبرام الميثاق الإستعماري في مؤتمر برلين 1881 م، حيث كان الضمير الأوربي الضمير المتحضر يعيش هذه الملحمة المتفقة مع روح ذلك الميثاق، حيث لا نستغرب إستعمال تسمية الإكتشافات الإستعمارية والفتوحات الإستعمارية»[1].

لقد كان لتحضر الشعوب الغربية مبررات ودوافع نفسية ورصيد ثقافي، ولكن مع التغيرات التي حدثت، خاصة بعد الحربين العالميتين، فإنّ تلك المبررات والدوافع وذلك الرصيد الضروري لتحمل أعباء الحياة بدأ ينفذ، فحاولت تلك الشعوب إجراء عملية تعويض في شتى المجالات. والملاحظ أنه بقدر « ما كانت تتحقق اكتشافات عملية كبرى في أوربة بقدر ما كانت تترك صداها على المجال النفسي، وأثرها الكبير في التطور الروحي ،حيث فقدت المبررات الروحية، وفقدت حتى المبررات التي نسميها المبررات الاجتماعية، المبررات الموضوعية ... نذكر على سبيل المثال ما كان لهم من ثقة بكلمتي العلم والحضارة .... والثقة بين هذين الجانبين واضحة. فحينما تفقد حياة ما أو مجتمع ما مبرراته لا بد أن يقوم بعمليات تعويض: يستبدل مبررات قديمة أو تقادمت أو فقدت تأثيرها في الحياة الاجتماعية بوصفها دوافع قوية للحياة الفكرية والعلمية

1- المصدر نفسه ، ص162 .

والعسكرية والإقتصادية، يعوضها بمبررات جديدة. فإذا لم تأت عملية التعويض كما ينتظر منها بالمبررات الجديدة ... تحدث الأزمة الخطيرة التي يعيشها العالم المتحضر اليوم» [1]. لقد لاحظ مالك بن نبي أن العالم المتحضر قد فشل في عملية التعويض من كل الجوانب السياسية أو الأدبية والفلسفية أو غيرها من الجوانب؛ وهذا يفسر –حسب بن نبي – القلق و الحيرة و تيه العقول و الأرواح و النفوس في الغرب، وإذا « ما فقد مجتمع ما مبرراته و لم يستطع تعويضها بالطرق المشروعة في محاولات مبذولة ، عندها يعتريه القلق ويعتريه التيه و تعتريه الحيرة »[2]. ومادامت المبررات أو المثل أو المبادئ التي ترتكز عليها أية حضارة مرتبطة بالسلوكات والتصرفات الفردية والجماعية، فإنّ أيّ خلل يطرق على تلك المبررات والمبادئ ينعكس سلباً على السلوكات، وهذا ما يُلاحظ في أوروبا وأمريكا اليوم. فنلاحظ تصدر السويد لقائمة الدول التي تشهد إحصائياتها مستويات عالية من ظاهرة الانتحار رغم تطور وتحضر وتقدم هذا البلد، «**وهذا يعني أن البطون إذا امتلأت لا تغني النفوس ولا تشبعها. إذا شبعت البطون قد تبقى الأرواح متعطشة، تبقى الأرواح متطلعة. و حين لا تجد وجهة تتطلع إليها تفضل هذه الاستقالة من الحياة، وقد يحدث في بلاد أخرى أكثر من هذا في صورة ما، ويبدو أن هناك صورا أخرى للاستقالة من الحياة هي أشنع من الناحية الأخلاقية و لا أقول من الناحية الدينية، لأن كل صور خيبة الأمل تتجلى فيها، مع شيء من العجز حتى عن القيام بهذه المحاولة لإعدام النفس؛ و ذلك أن هذه المحاولة تتطلب شيئا من الشجاعة** »[3]. ومن تلك السلوكات أو الصور المختلفة للاستقالة من الحياة التدهور الأخلاقي، الذي يتجلى في الإدمان على المخدرات وما يسببه من انهيار لطاقات وقوى الشباب الذي يؤدي بدوره إلى الخراب. وعندما يحلل مالك بن نبي هذه

1–المصدر نفسه، ص164.
2– المصدر نفسه، ص 165.
3–المصدر نفسه، ص165.

المعطيات يصل إلى نتيجة مفادها تضخم الإمكان الحضاري وتضاؤل الإرادة الحضارية، أي وجود تناقض بين الجانب المادي للحضارة والجانب الروحي لها.

وقبل التطرق إلى دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين في ظل المعطيات التي أشرنا إليها سابقا يشير إلى أهمية فشل عمليات التعويض في العالم المتحضر للمبررات التي فقدها، ويشير أيضا إلى عملية التعويض الهامة في القرن العشرين، وهي العملية التي تتمثل في "الشيوعية" ليس باعتبارها مذهبا سياسيا أو مذهبا اقتصاديا وإنما باعتبارها ديناً وعقيدة.

إنّ هذه المحاولة في التعويض التي نجحت إلى حد ما على حساب المبررات و الدوافع والمبادئ الأساسية التقليدية التاريخية ،يتنبأ لها بالفشل و هو على قناعة تامة بذلك بالرغم من بلوغ أوج قوتها في فترة الستينيات والسبعينيات حيث يقول مالك بن نبي حول ظاهرة الشيوعية :« إنّ هذا هو ما يجعلنا نعيد النظر في موقف المسلم في هذا الثلث الأخير، إذ الآن يبدأ دور المسلم أمام هذه الظاهرة حتى لك أنما أراد الله عز و جل تعطيل دور المسلم و تأجيله في هذا القرن حتى تنتهي كل تجارب الآخرين بالفشل، ويستطيع إصلاح أخطائهم، أو حتى تصل تجاربه إلى نهاية فشلها فتكون له الخبرة لتدارك أخطائه »[1] .

أمّا فيما يخص دور المسلم في ظل المعطيات المشار إليها سابقاً وفي ظل ضرورة رغبة المسلم في النهضة وإعادة مجد حضارته السابقة؛ فيتمثل في جانبين: الجانب الذي يتحقق على محور الغرب أو القوة أو محور واشنطن –موسكو، والجانب الذي يسمى محور طنجة – جاكرتا أو محور الإسلام. إنّ المسلم – حسب مالك بن نبي – يجب أن يفكّر في كيفية السير في إتجاه التاريخ وتغييره، وأن يفكر في كيفية استغلال الظروف

1–المصدر نفسه، ص171 –172 .

التي تتهيأ له على المحورين: المحور الذي فقد مبرراته التقليدية وينتظر مبررات أو مُثُل جديدة، والمحور الذي يتمثل في يقين المسلم بحتمية الانتصار المرتبط بعقيدته الإسلامية ما دام الله –سبحانه وتعالى – وعد بإظهار الإسلام وانتصاره على كل ما عداه. وهذا يتطلب وجود ذلك الإنسان الجديد غير "القابل للاستعمار" و "ليست له القابلية للعولمة" باعتبارها سيطرة واستعمار بطرق جديدة بالمميزات التي هي عليها الآن، ذلك الإنسان الجديد الذي يعي أهمية دوره ورسالته في هذا العالم وفي هذه الفترة الخاصة بالذات، ذلك الدور الذي يتمثل في الشهادة على الناس جميعا، والتي لا يمكنها أن تتم إلاّ بالحضور الذي يعني المساهمة في توجيه الأحداث وتغيير التاريخ إيجابيا، أي نحو ضمان الصالح العام خدمة للإنسانية جمعاء. والدور الذي تصوره مالك بن نبي للمسلم يتم طبقا لضرورات داخلية وضرورات خارجية. إنّ المسلم لا بد أن يبلغ الإسلام للغرب حتى يروي عطشه و يعوضه بمبررات جديدة عن المبررات التي فقدها، يقول مالك بن نبي :« إذا أراد المسلم أن يقوم بدور الري بالنسبة إلى الشعوب المتحضرة و المجتمع المتحضر ، و أراد –بعبارة أوضح – أن يقدم المبررات الجديدة التي تنتظرها تلك الأرواح التي تتألم لفراغها وحيرتها وتيهها ، إذا أراد المسلم ذلك فليرفع مستواه بحيث يستطيع فعلا القيام بهذا الدور . إذ بمقدار ما يرتفع إلى مستوى الحضارة بمقدار ما يصبح قادرا أيضا على بلوغ قمم الحقيقة الإسلامية واكتشاف قيم الفضيلة الإسلامية، ومن ثم ينزل إلى هضاب الحضارة المتعطشة فيرويها بالحقيقة الإسلامية و بالهدى، و بذلك يضيف إليها بُعدا جديدا»[1]. لأن الحضارة الغربية ربحت أشياء الأرض وفقدت بعد السماء، حققت المعجزات في مجال العلوم والتقنية، وفقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروّح ويرفّه عنها، ويسندها وقت المحن لأنه يربطها بوجود الله.

1–المصدر نفسه، ص 173.

وإذا أراد المسلم فعلا أن يسد هذا الفراغ فلا يكتفي فقط ببلوغ مستوى الحضارة، بل يجب أن يعمل على بلوغ مستوى أعلى إن استطاع لكي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود و ربانيته، « إذا أتى المسلم هكذا في صورة الإنسان المتحضر الذي اكتملت حضارته بالبعد الذي يضيفه الإسلام إلى الحضارة (وهو بعد السماء) ، عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة ... لأن القداسة من الله، ومن الله وحده ولا شيء يعطي القداسة لهذا الوجود غير الله »[1] .

إنّ حضارة القرن العشرين أتلفت قداسة الوجود في النفوس وفي الضمائر باعتبارها شيئا تافها لا قيمة له، ذلك لأن هذه الحضارة أخضعت كل شيء وكل فكرة إلى مقياس الكم ونجحت في ذلك، وذلك النجاح هو الذي يفسّر الأزمة الخطيرة التي تمر بها، أزمة أفقدتها مبررات وجودها . لقد « تركت أوروبة في سلة مهملاتها كل قداسة الأشياء ، وكل القيم المقدسة ، و في آخر المطاف دار عليها صولجان علمها وطغيانها العقلي كثعبان إلتوى على صدرها يضيّق عليها الأنفاس، أوروبة اليوم لا تتنفس التنفس الطليق، بل تتنفس تحت ضغط عالم الأشياء المتراكمة .إذ بقدر ما تراكمت الأشياء، وبقدر ما تراكمت الإمكانيات الحضارية اضمحلت القاعدة الأخلاقية الروحية المعنوية التي تتحمل في كل مجتمع عبء الأثقال الاجتماعية و الأثقال المادية، إذ لا بد من قاعدة روحية متينة حتى تتحمل هذه الأعباء، هذه الأعباء التي ترزخ تحتها أوروبا الحضارة الغربية اليوم، وهي في خضم الأشياء التكنولوجية التي تنتجها»[2].

من خلال هذا، يؤكد مالك بن نبي أن دور المسلم يعتبر رسالة، هذا المسلم الذي يعيش أيضا أزمة خاصة به، بل يشعر ويعي بضميره الخطر الكبير الداهم. إنّ المسلم يعيش –كما ذكرنا سابقا– أزمة متعددة الجوانب والأبعاد الاقتصادية والسياسية

1-المصدر نفسه، ص 173-174.
2-المصدر نفسه، ص 178.

والثقافية ...، وباختصار أزمة حضارية؛ لكن ومع صعوبة وخطورة الأزمة الحضارية التي يعيشها الإنسان المسلم ، فإن مالك بن نبي يؤكد أن الأزمة التي تعانيها الإنسانية المتحضرة أخطر وأعمق بكثير؛ ذلك أن أزمة المسلمين لا تمس جوهر كيانهم الإنساني، فالمسلم مازال يتمتع بشيء من الكرامة أو بشيء من التكريم الذي وضعه الله عز و جل فيه؛ أما أزمة الإنسان المتحضر اليوم تفقده أحيانا حتى إنسانيته حين يصبح وحشا مفترسا ضاريا ينقض على كل ما يستطيع تحطيمه، مثلما توضحه بعض الأحداث الخطيرة التي شهدها العالم مؤخرا مثل الدمار الذي أصاب العراق بعد الاعتداء عليه واحتلاله من طرف أمريكا إلى اليوم بداية من مارس 2003 بعد الحصار الجائر الذي دام 12 سنة قبل الاحتلال، ومثلما فعلت أمريكا بأفغانستان بعد اجتياحها سنة 2002 عقب أحداث 11 سبتمبر 2001 الذي شهدت تحطيم برجي التجارة العالمية بنيويورك، ومثلما فعلت إسرائيل بجنوب لبنان والدمار الذي خلفته خاصة مجزرة قانا، و بعدها مباشرة مجزرة جانفي 2008 في غزة بعدما حاصرت هذا القطاع وعاثت فيها فسادا، وما زالت الآثار المدمرة والحصار الجائر مستمرين إلى هذه اللحظة .فالإنسان المتحضر اليوم وبفعل أزمته قد يصبح وحشا مفترسا كما أوضحنا، وقد يصبح حيوانا تائها في أدغال المخدرات وكل مظاهر الانحلال الأخلاقي .

إنّ الإنسانية كلها تعاني أزمة خطيرة جدا ، و توقع مالك بن نبي أن تكون نهاية القرن العشرين أخطر مما قد يتصور العقل ، حيث يقول : « فإننا نرى خطورة هذا السير من خلال التوقعات التي تصورها لنا ملابسات هذه الفترة من الزمن التي نعيشها الآن ... إننا نتصور أن نهاية هذا الثلث الأخير من القرن العشرين لن تكون كالفترات الأخرى ، لأن التاريخ سينفرد إلى حد كبير بأشياء أخطر مما يتصور العقل، كأنما التاريخ كله تجمع منذ بدايته ... و اقترب من مصبه ، كالنهر الذي تجمعت كل

روافده فيه ... وسينصب قريبا في سنة ألفين التي تضع أمام الإنسانية جمعاء أخطر نقط الاستفهام على مصير الإنسانية منذ بدايتها »[1].

ويبدو من خلال توقعات مالك بن نبي لنهاية القرن العشرين، أنها تفاؤلية يغلب عليها الطابع الايجابي لمحور الإسلام و الطابع السلبي لمحور القوة؛ و لكن مع ذلك فإنّ الواقع يؤكد العكس– للأسف الشديد– فما عدا بعض الأحداث التي كانت إيجابية في محور الإسلام و هي قليلة ، فإننا نلاحظ أن أغلب الأحداث كانت سلبية على العالم الإسلامي و وحشية عنيفة على الإنسانية بصفة عامة ،« فقد وقعت أحداث بارزة بعد وفاته يرحمه الله و التي لا نحسبها في حسبان توقعاته و التي أثرت في المسار الذي سطره إلى حد كبير .فمحور الضعف ازداد ضعفا في الإرادة ومحور القوة ازداد في الإمكان رغم استمراره في فقدان المبررات الحضارية. فقد شهدت الفترة التي أعقبت فترة ابن نبي قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية، و انهيار جزء من محور واشنطن – موسكو (أي المعسكر الشرقي)، و"الحقبة السوداء" في الجزائر، وظهور بعض النماذج التنموية "المتميزة" ذات الطبيعة الإسلامية مثل ماليزيا أو المبنية على نقل "النمط المادي النسبي " مثل الإمارات أو "التوفيقية" مثل تركيا، و أحداث 11 سبتمبر وغزو أفغانستان والعراق وحرب تموز بجنوب لبنان والهجوم على غزة ..الخ . وإعلاميا، فقد تغيّر الوجه الإعلامي بشكل بارز منذ تلك الفترة مع انتشار الفضائيات و ظهور القنوات الإخبارية المستقلة و تكنولوجيا الاتصال و انتشار قنوات الاتصال التفاعلية الفردية والجماعية، الخ، مع ذلك، فإن فكره كان كفيلا كما رأينا بوضع المشكلة في ميزانها الحقيقي والمتجدد »[2].

1–المصدر نفسه، ص179، 180 .

2–عبد الرحمن عزي، **الإعلام في فكر مالك بن نبي** ، مقارنة استقرائية ، **مجلة الحكمة** و هي مجلة دورية مستقلة تعنى بالبحوث العلمية و الدراسات الفلسفية ، ع . (الجزائر 3: كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، مايجويلية2010) ص21.

إنّ البشرية، إذن، تعيش فعلا حالة استثنائية وخطيرة أو بتعبير مالك بن نبي حالة طوارئ؛ ومن هنا تبرز رسالة المسلم، وهي رسالة إنقاذ: إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين. ولكي يكون المسلم واعيا بهذه الرسالة يجب أن يتحمل كامل مسؤوليته في إعادة بناء المجتمع الإسلامي على أسس حضارية جديدة ، خاصة وأن المسلم اليوم صار من المنبوذين في العالم ، لأنه –كما يقول بن نبي – نبذ نفسه هو بأعماله ، ولم ينبذه التاريخ .إنه من الواجب على المسلم « أوّلا أن يساهم في بناء مجتمعه كي يستطيع أن يتكلم مع الآخرين نِدّاً إلى نِدّ ، والمسلم اليوم لا يتكلم ندّاً إلى ندّ بل يتكلم كإنسان منبوذ ؛ لا يسمعه إلاّ بعض من وهبهم الله عقولاً كبيرة يستمعون إلى الفقراء ، أما الآخرون فهم لا يستمعون للمسلم . ثمّ إنّ على هذا المسلم أن يستمر في تبليغ دعوة عُطِّل تبليغها منذ سبعة قرون أو ثمانية قرون، عطّل هذا التبليغ و هو المسؤول عنه »[1]؛ لأنّ الله حمّله واجب الشهادة على الناس أجمعين ، و هذه الشهادة تستلزم التبليغ وتستلزم الحضور ، و المسلم لا يستطيع تحقيق شرط الشهادة والحضور و التبليغ ، إلاّ إذا حقق شرطاً آخر و هو بناء مجتمع يكون في مستوى عالمية الرسالة أولاً ، ثمّ في مستوى البشر الذين يُبلغهم ثانياً. والملاحظ هنا أن هناك تفاوتاً بين حضارة المسلمين وحضارة الغرب من الناحية المادية و من ناحية الفعالية، و من هنا فلا يمكن أن نبلغ رسالتنا كمسلمين لمن يعتقدون أننا أدنى منهم في كل شيء، و لا يمكننا تجاوز هذا إلاّ إذا ارتقينا إلى مستوى الحضارة « فنحن لا نستطيع أن نروي الآخرين إن لم نكن ، على الأقل ، في مستواهم الإجتماعي ، وإلاّ فكيف يتقبلون منا هداية و إرشادا و عناية و نحن في نظرهم – و ليس في نظرنا- أدنى منهم .... والقضية في هذا الإطار تتصل بمدى الكفاءة لا بمدى صحة الأفكار »[2]،و منه فصحة الأفكار و الإرادة لا يكفيان بدون كفاءة . و ما دمنا نتكلم عن الكفاءة وغيرها من الشروط من أجل تحقيق أفضل

1- مالك بن نبي، **مجالس دمشق**، ص69.
2-عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص12.

النتائج و أدقها في ما يتعلق بأداء الرسالة المنوطة بالمسلم المعاصر على أكمل وجه ، فإنّه يجب أن نربط هذا بعنصر آخر خطير ، خاصة في هذه المرحلة الحساسة ، ألا وهو عنصر "الإعلام" ،بحيث أن الثورة التكنولوجية في مجال الإعلام و الاتصال و المعلوماتية التي هي سمة الثلث الأخير من القرن العشرين و بداية القرن الواحد والعشرين، تعتبر أداة فعالة لنشر الأفكار و المعارف والقيم و تبليغها ؛ و هذا ما جعل أحد المفكرين الذين عاصروا مالك بن نبي و ما زال حيا إلى اليوم يقول : «و حسبي فلو أن ابن نبي عاش فترة انتشار الإعلام و تكنولوجيا الاتصال بعد السبعينيات لأضاف عنصر الإعلام إلى المعادلة المذكورة »[1].أي معادلة الحضارة عند مالك بن نبي التي تتكون من "الإنسان والتراب والزمن" ، و من هذا فتجاوز الإخفاق الإعلامي الملاحظ على مستوى العالم الإسلامي ضروري ليقوم المسلم بتبليغ رسالته إلى العالم أجمع ، و هذا يتطلب تحكما و كفاءة إعلامية عالمية .

إننا إذا عدنا إلى قضية رسالة المسلم التي تتمثل في إنقاذ نفسه و إنقاذ الآخرين ، فنقول أن عملية إنقاذ الذات و خاصة إنقاذ الإنسانية جمعاء ، ليست عملية أو مهمة بسيطة و سهلة، و لكنها ليست مستحيلة ،خاصة إذا علمنا أن أولئك الأعراب في عهد محمد –صلعم– و هم الفقراء و الأميون و البدويون ، قد اضطلعوا بمهمة إنقاذ الإنسانية بعدما شعروا فعلا أنهم جاؤوا من أجل ذلك ، لقد كانوا يذهبون إلى إمبراطورية الفرس و الروم ،و يعلنونها صراحة: "لقد جئنا لننقذكم" ؛ دون أن يشعروا بمركب النقص ، و لم يشعروا بذلك لأنهم لم ينبهروا بالإمكانيات الحضارية التي كانت عند غيرهم من الأمم و الشعوب المتحضرة آنذاك ، بل «كانوا يشعرون أمام الإمكانات الحضارية المتكدسة ، بإرادة حضارية تفوق كثيرا ما تبقى منها لدى المجتمعات المتحضرة في ذلك العصر . كذلك الحال اليوم لو أننا عقدنا مقارنة. فليس إذن من الصعب أن يقوم هذا

1–عبد الرحمان عزي، المرجع السابق، ص 12.

المسلم الفقير الأعزل، هذا المسلم الذي يضحي بمصالحه الكبرى حتى في هيئة الأمم. أن يقوم رغم ذلك و بفضل إسلامه فقط بمهمة الإنقاذ ...بفضل إسلامه لا غير، يستطيع اليوم إنقاذ الإنسانية المتورطة في الضياع رغم علمها وكبريائها وتكنولوجيتها»[1].

إنّ إنقاذ الإنسانية و تغيير أوضاعها يتطلب أولاّ تغييرا في أنفسنا ، فكما يقول مالك بن نبي دائما "غيّر نفسك تغيّر التاريخ " ،و هكذا يمكن للمسلم أن يوفر شروط أداء رسالته ، وإلاّ فإنه لا يستطيع إنقاذ نفسه ولا إنقاذ الآخرين ، و لكي يغير المسلم نفسه و غيره و ينقذ نفسه و ينقذ غيره، فيجب أن يعرف نفسه جيّداً ،ثم يجب عليه أن يعرف الآخرين جيّداً ، ثم يجب عليه أن يعرّف نفسه للآخرين بعدما يقوم بالتصفية و التنقية اللازمة للشوائب العالقة به، فيكون حينئذ في صورة محببة و من ثم يكون مؤثراً ، «هذه المنهجية هي العامل الأساسي في نجاح الداعية المسلم ، لكي يستطيع أن يؤدي دوره ،كمبلغ للناس كافة ، و شاهد عليهم ، وبشكل آخر هي قاعدة النجاح في تعامل الإنسان ، مع ذاته بالجهاد الأكبر ، و مع محيطه ومجتمعه بالجهاد الأصغر »[2]. فلا بد أن يعرف المسلم نفسه دون مغالطة ، و أن يعرف الآخرين دون تكبر ، بل بكل أخوة و صدق و إخلاص ، و أن يحبهم لوجه الله بحرارة الإسلام؛« فحرارة الحب الإسلامي هي حب و أخوة في الله تؤلف بين القلوب ،فتصنع الوحدة المجتمعية قوة منتجة ، كما كان مجتمع التآخي الأول الذي صاغه الرسول –صلعم– بين المهاجرين و الأنصار ، و الإنسانية اليوم تعاني ما تعانيه لطغيان قيم المادة والكم ، والبشر فيها حائرون مظلومون

1–مالك بن نبي، **مجالس دمشق**، ص180 –181.

2 –أسعد السحمراني، **صراع الأمم ...بين العولمة والديمقراطية**، بيروت، دار النفائس، 2000 ، ص201.

يبحثون عن ماء الطمأنينة و الإنسانية ، ولم يستطيعوا إيجاده في الفكر الأوروبي ولا في المحاولات الفلسفية التنظيرية الحديثة ، و لن يجدوه في غير الإسلام»[1] .

ومن خلال الشروط والمعطيات السابقة المتعلقة بعملية إنقاذ الذات والإنسانية جمعاء، نستخلص شرطين أساسين أو أمرين: الاقتناع والإقناع، «الاقتناع أولا؛ لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه، فلا يمكن للمسلم إن لم يقتنع بأنّ له رسالة هي أن يبلغ الآخرين هذه الرسالة أو فحوى هذه الرسالة أو مفعول هذه الرسالة. إذن يجب أن يقتنع هو أولاّ. وأنا أعني قناعته برسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، و لا أتكلم عن اقتناعه بدينه، فكل مسلم مقتنع بدينه من يوم أن نزلت الآية الأولى في غار حراء »[2].

من الواضح أن حقيقة المسلم غير واضحة عند الآخرين، و لهذا فعلى المسلم أن يتقدم لهم آخذا بالاعتبار تصورهم عنه « لأن حقيقة المسلم محجوبة عن نظر الآخرين. إن حقيقة المسلم، كرامة المسلم، فضيلة المسلم، أخلاق المسلم، شرف المسلم، عزة المسلم، كل هذه الأشياء تخفيها عن نظر الآخرين المظاهر الاجتماعية. وهي تشهد بكل أسف في نظر الآخرين على المسلم وضده. فالمسلم فقير، و المسلم جاهل، المسلم كذا ...»[3] حتى أصبح المسلم اليوم هو الإرهابي ، الذي يجب التضييق عليه و مضايقته و محاربته في كل أمصار العالم ،و في كل مكان ، سواء في المطار أو الميناء أو وطنه أو خارج وطنه كمهاجر أو سائحا وغير ذلك . و مع كل هذه الصعوبات و العراقيل ، فالمسلم قادر بطريقة ما على تحقيق و أداء رسالته على أكمل وجه دون اللجوء إلى القوة ، فالمسلم يجب عليه في كل الحالات أن يطرح و يعالج المشكلات بمنطق البقاء وليس بمنطق القوة ، خاصة و أن الظروف لا تسمح له بغير ذلك؛ و لا يهمنا كمسلمين

1-المرجع نفسه، ص202 .
2-مالك بن نبي، **مجالس دمشق**، ص181.
3- المصدر نفسه، ص182.

و لا يهم الإنسانية التي تعتبر نفسها متقدمة أن ترجع أطراف محور القوة إلى رشدها، لا يهم أن تطرح أمريكا مثلا اليوم كل مشكلاتها بمنطق القوة .

و يؤكد مالك بن نبي دائما أن المسلمين مضطرون لأن يطرحوا مشكلاتهم بمنطق البقاء حتى يتمكنوا من التقدم خطوات إلى الأمام ، و يرفعوا مستواهم إلى مستوى الحضارة، ويحاولوا تصفية العلاقات الثقافية و النفسية و السياسية في الخريطة العالمية حتى تتمكن الإنسانية من رفع مستواها إلى مستوى القداسة .

إذن يجب على المسلم أن يضطلع برسالته، أن يفكر في إعجازه، و«إعجازُه لا يتأتى إلاّ بتحقيق شرط جوهري و هو تغيير ما بنفسه و تغيير ما في محيطه مصداقا للآية الكريمة ﴿ إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد : 11-13] و لا يمكن أن يغيّر شيئا في الخارج إن لم يغيّر شيئاً في نفسه . و حينما نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها (علما)، و لا نقولها فقط تبركاً بآية، نقولها (علما) و نعلم مقدارها من الصحة العلمية، لا يستطيع مسلم أو غير مسلم أن يغيّر ما حوله إن لم يغيّر أولا ما بنفسه، فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها قانوناً إنسانيا وضعه الله عز وجل في القرآن سنة من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر»[1]. ونشير هنا إلى أن منهج الرسالة يقتضي التغيير، ويقتضي توفير وسائلها أي الطرق العملية لتطبيقها حتى تحقق مهمتها المتمثلة في حالة الإنقاذ أو حالة الطوارئ التي تخص المسلم والإنسانية جمعاء، ولهذا يجب على المسلم أن يحقق الشروط الثلاثة التي أشرنا إليها سابقا وهي: أن يعرف نفسه، وأن يعرف الآخرين، وأن يعرّف الآخرين بنفسه.

1-المصدر نفسه، ص185.

ويحذر مالك بن نبي من الاعتقاد الخاطئ أن الفكرة الصحيحة تكون صالحة بالضرورة، لأنه قد تكون فكرة ما صالحة وليست صحيحة، والعكس بالعكس، أي قد تكون فكرة ما صحيحة ولكنها فقدت صلاحيتها لأسباب وظروف معينة.

فالإسلام دين صحيح فقد بعض صلاحياته إلى حد ما بسبب تقاعس المسلمين ونومهم في النهار وتكاسلهم، وتفريطهم في كرامتهم وعزتهم وعلمهم ونزاهتهم وبطولتهم وشهادتهم ولو على أنفسهم، فالمسلم ضيّع القيم الإسلامية التي كانت تشرق على وجهه، وتجعله في نظر الآخرين أجمل صورة إنسانية في التاريخ. ولهذا يجب على المسلم ألا يتقدم للآخرين بوصفه عورة يجب أن يستحي منها، فالعورة تستر ولا تكشف، حيث الجهل عورة والفقر عورة والفوضى عورة... وهذه العورات لا تتيح لشخصية المسلم أن تبلغ إشراق الإسلام. والأمر الخطير في المسألة أن الإسلام سيشرق من جديد حتما بالمسلمين أو بغيرهم، ولهذا فعلى المسلم أن يعي هذا، ويؤدي دوره ورسالته قبل فوات الأوان، ذلك لأن مالك بن نبي يؤكد أن الإسلام كرسالة وكدين وكقيم للإنسانية جمعاء وليس للمسلم فقط، ولهذا فقد يقوم بأداء تلك الرسالة غير المسلم ويحتضنها غير المسلم، فيفوت المسلم على نفسه هذه الفرصة وهذا الشرف.

خاتمة:

وقد يبدو حمل الرسالة وأداء الدور صعباً على المسلم والمعاصر، ولكن يجب القول أن مالك بن نبي مثّل في حياته نموذج الإنسان الرسالي، فقد قام «بدور الشاهد على الناس الذين عاصرهم، وكان شاهدا تقيا، ورعا، نزيها، صادقا في شهادته، وواعي القيمة شهادته»[1]، فكان شاهدا في مذكراته ، ومبلغا في مختلف مؤلفاته، وداعيا إلى الخير والمبادئ الإنسانية السامية من خلال فلسفته التي كانت تهدف إلى تحقيق السعادة العالمية أي سعادة الإنسانية كلها. وهذا ما جعل الدكتور عبد الرحمان عزي يقول :« إنّ فكر ابن نبي ذو طبيعة عالمية ، فلو عدلنا تعبير "**ماكلوهان**" عن القرية العالمية (global village) ، لو جدنا أن دعوة ابن نبي دعوة إلى قرية عالمية ولكن ليس على أساس " الوسيلة هي الرسالة " ولكن على أساس قداسة الوجود " والقائمة على سنن إلهية كونية تخص البشرية جمعاء بمحوريها طانجا–جاكرتا وواشنطن–موسكو ... فالعالمية التي يَدعو لها بن نبي " عالمية حضارية " تنقذ الغرب من سلطان الاستعمار وتجعله يكتشف الآخر بعيدًا عن المناورات والهيمنة. وبتعبير آخر، فإن دعوته تخص " القرية العالمية القيمية " إن صح هذا التعبير»[2].

1–عبد اللطيف عبادة، **صـــفحات مشـــرقة من فكر مالك بن نبي**، ط1 (باتنة الجزائر : دار الشهاب للطباعة والنشر ، 1984) ، ص 123 .

2–عبد الرحمان عزي، المرجع السابق، ص 19

قائمة المصادر والمراجع:

- قرآن كريم.

أ/قائمة المصادر:

- مالك بن نبي، مجالس **دمشق**، دمشق: دار الفكر، 2005.

ب/قائمة المراجع:

1-الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الإستخلافية**، قراءة في سنن التغيير الإجتماعي، ط1(الجزائر، دار قرطبة،2004).

2-عمر مسقاوي، من مقدمة كتاب **مجالس دمشق لمالك بن نبي**.

3-عبد الرحمن عزي، **الإعلام في فكر مالك بن نبي**: مقارنة استقرائية، **مجلة الحكمة** وهي مجلة دورية مستقلة تعنى بالبحوث العلمية والدراسات الفلسفية، ع.3(الجزائر: كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ماي جويلية 2010) ص21.

4-أسعد السحمراني، **صراع الأمم ...بين العولمة والديمقراطية**، بيروت، دار النفائس،2000، ص201.

5-عبد اللطيف عبادة، **صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي**، ط1 (باتنة الجزائر: دار الشهاب للطباعة والنشر، 1984)، ص 123.